

26

إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى



إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا

قال (تعالى) :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران : ٨٦ ـ ٨٩]



جاءَ رجلٌ منَ الأنْصار يُقَالُ له : الْحارِثُ ابْنُ سُوَيْد إلى رسُول اللَّه ﷺ ، يُريدُ أنْ يدْخُل فى الإسْلامِ ، فعَرضَ لهُ الرَّسولُ ﷺ الإسْلامَ وعرَّفَهُ بمَبادئه وأحْكامه ، وانْصرَفَ الرَّجلُ منْ عنْد رسُول اللَّه ﷺ بَعْدَ أنْ نطقَ بالشَّهادَتيْنِ وعاهدَ رسُول اللَّه ﷺ على الْجهاد فى سَبيل اللَّه وطاعةَ اللَّه ورسُوله .

وقبْلَ أنْ ينصرِفَ الْحارِثُ إلىَ حال سبيله ، كانَ قدْ عرَفَ عنِ الإسْلام الشَّىْءَ الْكثيرَ ، وأقامَ بيْنَ الصَّحابةِ (رِضْوانُ اللَّه عليهمْ)

يتعلَّمُ منهُمُ القرآنَ الكريمَ والأحاديثَ الشَّريفةَ ، قبْلَ أنْ يعودَ إلى أهْلِهِ وديارِهِ التى تبْعُدُ قليلاً عنِ المدينةِ المنوَّرةِ .

وعادَ الحارثُ إلى أهْلِهِ وأخْبرَهُمْ أنهُ دخلَ فى دينِ اللَّهِ ، وقالَ لهمْ :

ـ لقدْ آمنْتُ باللَّهِ واتَّبعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ .

فقالُوا له :

ـ كيفَ تُؤمنُ بمحمدٍ وتكْفُرُ بدينِ آبائكَ ؟

فقالَ الحارثُ :

ـ لقدْ دعانى الرَّسولُ ﷺ للإسلامِ

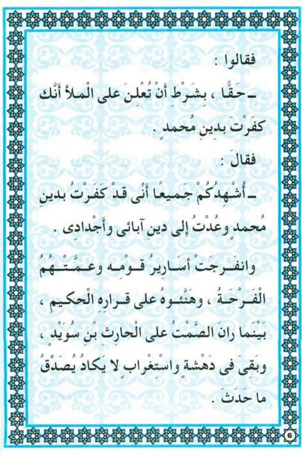
فأسْلمتُ ، ومَا أَرانى أخْطأْتُ بذلكَ .

كـانَ الْحـارثُ مُتـرَدِّدًا ، وكـانَ يُسَاوِرُهُ الشَّكُّ والْقَلَقُ مِـمَّـا أَقْدمَ عليـه ، ولذلكَ أَحسَّ أَهْلُهُ أَنَّهُ يُمْكِنُ التَّأْثيرُ عليْه وإقْناعُهُ بالرُّجوعِ عَنِ الإسْلامِ ، فقالوا لهُ :

ـ أَنْتَ رجُلٌ راجِحُ الْعَـقْلِ فيـنا ، ولوْ تركْتَ دينَ مُـحَـمَّـدٍ لأَمَّـرْناكَ علَيْنا ، ولأَصْبحَ الْكَبيرُ والصَّغيرُ يأْتَمرونَ بأَمْرِكَ ، ويَسيرونَ بِمَشُورَتِكَ .

فقال :

ـ حقًّا ؟



فقالوا :

ـ حَقًّا ، بِشَرْطِ أَنْ تُعْلِنَ على المَلأ أَنَّك كفَرْتَ بدينِ مُحمدٍ .

فقالَ :

ـ أُشْهِدُكُمْ جَميعًا أَنِّى قدْ كَفَرْتُ بدينِ مُحمدٍ وعُدْتُ إِلى دينِ آبائى وأَجْدادِى .

وانفَـرجَتْ أَسَـارِيرُ قَـومِـه وعَـمَّـتْـهُـمُ الفَـرْحَـةُ ، وهَنَّـئوهُ على قَـرارِه الْحكيمِ ، بَيْنما رانَ الصَّمْتُ على الْحارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ ، وبَقِىَ فى دَهْشَةٍ واسْتِغْرابٍ لا يَكادُ يُصَدِّقُ ما حَدَثَ .

ولمْ يَكَدِ الْحارِثُ يَخْلو بِنَفْسِهِ حتى انْفَجَرَ بالْبُكاءِ ، وشَعَرَ بالظَّلامِ يُحيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ويَمْلأُ نَفْسَه :

ـ ما الذى فعَلْتَهُ يا حارِثُ ؟ كيْفَ تَتْرُكُ دينَ النُّورِ والْحَقِّ وتَعودُ إلى دينِ الْوَثَنيَّةِ ؟

وعاشَ الْحارِثُ فى مَرارَةٍ وحُزْنٍ ، لا يَعْرِفُ الابْتِسامَةَ ولا يَهْنأُ جَفْنُهُ بالنَّوْمِ ، ولا يَراهُ قَوْمُهُ إلاَّ مَهْموماً حَزيناً ، وكُلَّما سألوهُ عنْ سِرِّ حُزْنِه انْفَجَرتْ عَيْناهُ بالْبُكاءِ ، ويكونُ الصَّمْتُ جَوابَهُ .

كانَ لِلْحارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ صَديقٌ مُسْلِمٌ



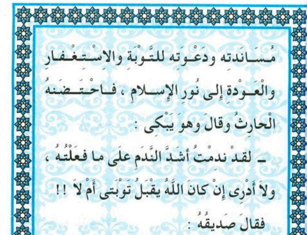
يُحبُّهُ ويُخْلِصُ لهُ ، عَلِمَ بما حدَثَ لِلحارِثِ فقال لِنَفْسِه :

ـ يَجبُ أنْ أُنْقِذَ الحارِثَ مِنَ الْهَلاكِ ، فالصَّديقُ الحَقُّ يظْهرُ عِنْدَ الشِّدَّةِ .

وأضافَ قائلاً :

ـ وقـدْ علِمْتُ أنهُ قَـدْ نَدِمَ علَى ارْتِدادِه عَنِ الإِسْلامِ أشَدَّ النَّدَمِ ، ولا شَكَّ أنَهُ الآنَ يفكِّرُ بجِـدِّيَّةٍ فِى التَّكْفِـيـرِ عنْ ذَنْبِـهِ وخَطِيئَتِه .

وأفاقَ الْحارثُ على صوْتِ صَدِيقِه الذى قطَعَ مَـسَـافَـةً طَوِيلَةً ، وجـاءَ منْ أجْلِ



مُسَانَدتِه ودَعْوتِه للتَّوْبَةِ والاسْتِغْفارِ
والْعَوْدَةِ إلى نُورِ الإسْلامِ ، فاحْتَضَنَهُ
الْحارِثُ وقالَ وهوَ يَبْكِي :

ـ لقدْ ندِمْتُ أشَدَّ النَّدَمِ على ما فعَلْتُهُ ،
ولاَ أدْرِي إنْ كانَ اللَّهُ يقبَلُ توْبَتِي أمْ لاَ !!

فقالَ صَدِيقُهُ :

ـ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا .

فبَكَى الْحارِثُ حتى ابْتَلَّتْ لحْيَتُهُ وقالَ :

ـ ولَكِنَّ ذَنْبِي لَيْسَ كأَيِّ ذَنْبٍ ، لقدْ
كَفَرْتُ باللَّهِ وأشْرَكْتُ به بعْدَ إذْ هدانِي .

رقَّ الصَّدِيقُ لِحالِ الْحارِثِ وتأثَّرَ لما بِهِ ،

لكنَّه هدأَ نَفْسَه وقال له :

ـ سوفَ أَذْهبُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ وأُخبِرُهُ بتَوْبَتِكَ وبصدْقِكَ فى التَّوْبَة ، وأسألُهُ إن كانَ اللَّهُ يقْبَلُ منكَ التوبَةَ أَمْ لا ، وأَنا واثِقٌ أَنَّ اللَّهَ (تعالَى) سَيكُونُ معَكَ ما دُمْتَ صادِقًا .

فبكَى الحارثُ وقال لصديقه :

ـ واللَّه إنى لصادِقٌ ، ومُنْذُ فعلْتُ ما فَعَلْتُ ندمْتُ أَشدَّ النَّدمِ ، حتى خاصَمَ النَّوْمُ جُفُونى ، ولمْ يهْنَأْ لى طَعامٌ ولا شَرابٌ ، فاذْهَبْ إلى رسولِ اللَّه ﷺ وأَبْلغْهُ السَّلامَ ، وأَخْبِرْه



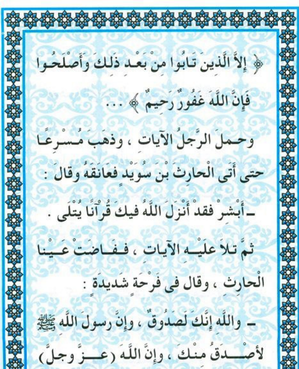
أنى قدْ نَدمْتُ فهلْ يقْبَلُ اللّهُ تَوْبَتى ؟

فذهبَ الرجلُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ مُسْرِعًا ، وقال له :

ـ يا رسُولَ اللّهِ ، إنَّ الحارِثَ بْنَ سُوَيدٍ قدْ نَدِمَ على ما فَعَلَهُ ، وهو يَسْأَلُكَ : هلْ له مِنْ تَوْبَةٍ ؟

فنزلَ قوْلُهُ (تعالَى) :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالمِينَ ﴾ ... إلى قوله (تعالَى) :



﴿ إلاَّ الَّذين تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ...

وحملَ الرَّجلُ الآيات ، وذهَبَ مُسْرِعًا حتى أَتى الحارِثَ بْنَ سُوَيْدٍ فعانَقَهُ وقال :

ـ أَبْشِرْ فقدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فيكَ قُرْآنًا يُتْلَى .

ثمَّ تلاَ عليْهِ الآيات ، فَفاضَتْ عَيْنا الْحارِثِ ، وقال فى فَرْحَةٍ شَديدَةٍ :

ـ واللَّهِ إِنَّكَ لَصَدُوقٌ ، وإِنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ لأَصْدَقُ مِنْكَ ، وإِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وجلَّ) لأَصْدَقُ الثَّلاثَةِ .

ثم أَضافَ فى لَهْفَةٍ :

ـ هيَّا نذْهَبْ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ حتى أُعْلِنَ تَوْبَتى أَمَامَهُ ، وأُعْلِنَ نَدَمى أَمام الْمُسْلِمين .

وذَهَبَ الْحارِثُ بن سُوَيْدٍ إلى رسولِ اللَّه ﷺ ، فأَعْلَنَ توبَتَه ونَدِمَ على ما فَعلَهُ ، فقَبِلَ مِنْهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فعادَ الرَّجلُ للإسْلامِ وأَسْلَمَ إسْلامًا حَسَنًا .

إنَّ اللَّهَ (تعالَى) يقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عبادِه ، بشَرْطِ أَنْ يكونَ الْمَرْءُ صادِقًا فى تَوْبَتِه ، وأَن يَنْدَمَ على ذُنُوبِه ندمًا حَقيقيًّا .

قالَ (تعالَى) :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[سورة التوبة : ١٠٤]

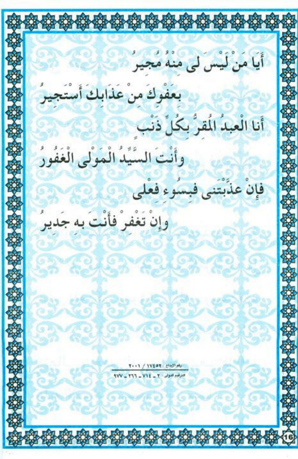
وقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنَّ اللَّهَ (عز وجلَّ) يَبْسُطُ يَدَيْهِ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ ، ويَبْسُطُ يَدَيْهِ بالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها » . [رواه مسلم] .

وتوضِّحُ لنا الآياتُ أَنَّ اللَّهَ (تعالَى) لا يَهْدِي القَوْمَ الْكافِرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ

علی كُفْرِهِمْ ، فاللَّهُ لا يَهْدِيهِمْ ما دامُوا مُقيمِينَ على كُفْرِهِمْ وظُلْمِهِمْ ولا يُقبلونَ على الإسْلامِ ، أَمَّا إذا أَسْلَمُوا وتَابوا فإنَّ اللَّهَ (تعالَى) يقبَلُ توْبَتَهُمْ ويُوَفِّقُهُمْ إلى الصَّلاحِ والْعَمَلِ الصَّالِحِ .

ولعلَّ قِصةَ الْحارِثِ بنِ سُوَيْدٍ وما نَزلَ فِيها مِنْ آياتٍ ، تَفْتَحُ بابَ الأَمَلِ أَمامَ كلِّ عاصٍ للَّه لكَيْ يعودَ إلى اللَّهِ ، ويسْتَغْفِرَ ربَّهُ على ما فَاتَ ، ويَنْدَمَ على ذنْبِهِ ، واللَّهُ (تعالَى) يغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا إذا أَقْبلَ عليهِ الإِنْسانُ مُسْتغْفِرًا تائِبًا مُنِيبًا .



أَيا مَنْ لَيْسَ لِى مِنْهُ مُجِيرُ

بِعَفْوِكَ مِنْ عَذَابِكَ أَسْتَجِيرُ

أَنا الْعبدُ الْمُقِرُّ بِكُلِّ ذَنْبٍ

وأَنْتَ السَّيِّدُ الْمَوْلى الْغَفُورُ

فَإِنْ عذَّبْتَنى فَبِسُوءِ فِعْلى

وإِنْ تَغْفِرْ فأَنْتَ بِهِ جَدِيرُ

رقم الإيداع : ١٧٤٥٢ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى : ٢ ـ ٧١٤ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧